تفسير ابن كثير

يقول تعالى معظما لأمر القرآن ومبينا علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية ا } أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف ا D فكيف يليق بكم يا أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية ا وقد فهمتم عن ا أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى : { وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون } قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : { لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا } إلى آخرها يقول لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية ا فأمر ا الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ثم قال تعالى : { وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون } وكذا قال قتادة وابن جرير .

وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبي صلى ا عليه وسلّم ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول ا صلى ا عليه وسلّم من الجذع وهكذا هذه الاية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام ا وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : { ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى } الاية وقد تقدم أن معنى ذلك أي لكان هذا القرآن وقد قال تعالى : { وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية ا } .

ثم قال تعالى : { هو ا الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم } أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره ولا إله للوجود سواه وكل ما يعبد من دونه فباطل وأنه عالم الغيب والشهادة أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات وقوله تعالى : { هو الرحمن الرحيم } قد تقدم الكلام على ذلك في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ههنا والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات فهو رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما وقد قال تعالى : { ورحمتي وسعت كل شيء } وقال تعالى : { كتب ربكم على

نفسه الرحمة } وقال تعالى : { قل بفضل ا وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون } ثم قال تعالى : { هو ا الذي لا إله إلا هو الملك } أي المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة وقوله تعالى : { القدوس } قال وهب بن منبه أي الطاهر وقال مجاهد وقتادة أي المبارك وقال ابن جريج تقدسه الملائكة الكرام { السلام } أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : { المؤمن } قال الضحاك عن ابن عباس : أي أمن خلقه من أن يظلمهم وقال قتادة : أمن بقوله أنه حق وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به وقوله تعالى : { المهيمن } قال ابن عباس وغير واحد : أي الشاهد على خلقه بأعمالهم بمعنى هو رقيب عليهم كقوله { وا على كل شيء شهيد } وقوله { ثم ا شهيد على ما يفعلون } وقوله { أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت } الاية وقوله تعالى : { العزيز } أي الذي قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ولهذا قال تعالى : { الجبار المتكبر } أي الذي لا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما تقدم في الصحيح [العظمة إزاري والكبرياء رادئي فمن نازعني واحدا منهما عذبته] وقال قتادة : الجبار الذي جبر خلقه على ما يشاء وقال ابن جرير : الجبار المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم وقال قتادة : المتكبر يعني عن كل سوء ثم قال تعالى : { سبحان ا عما يشركون } وقوله تعالى : { هو ا الخالق البارئ المصور } الخلق التقدير والبرء هو الفري وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود وليس كل من قدر شيئا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى ا D قال الشاعر يمدح آخر : .

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفري .

أي أنت تنفذ ما خلقت أي قدرت بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد فالخلق التقدير والفري التنفيذ ومنه يقال قدر الجلاد ثم فرى أي قطع على ما قدره بحسب ما يريده وقوله تعالى : { الخالق البارئ المصور } أي الذي إذا أراد شيئا قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار كقوله تعالى : { في أي صورة ما شاء ركبك } ولهذا قال المصور أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها .

وقوله تعالى : { له الأسماء الحسنى } قد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف ونذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم [إن تعالى تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر] وتقدم سياق الترمذي وابن ماجه له عن أبي هريرة أيضا وزاد بعد قوله : [وهو وتر يحب الوتر] واللفظ للترمذي : [هو ا الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح

العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الاخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المعطي المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور] وسياق ابن ماجه بزيادة ونقصان وتقديم وتأخير وقد قدمنا ذلك مبسوطا مطولا بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته ههنا .

وقوله تعالى : { يسبح له ما في السموات والأرض } كقوله تعالى : { تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا } وقوله تعالى : { وهو العزيز } أي فلا يرام جنابه { الحكيم } في شرعه وقدره وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا خالد يعني ابن طهمان أبو العلاء الخفاف حدثنا نافع بن أبي نافع عن معقل بن يسار عن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ با السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل ا به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم مات شهيدا ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة] ورواه الترمذي عن محمود بن غيلان عن أبي أحمد الزبيري به وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه آخر تفسير سورة الحشر و الحمد والمنة